

الدين والنظام العالمي بمنظور إسلامي

أحمد صدقي الدجاني

1 - بحثاً عن منظور إسلامي للنظام العالمي

«الحديث عن الدين في العالم المعاصر متصل، في مختلف دوائر عالمنا الحضارية. وإذا كانت هذه الظاهرة ليست جديدة في دائرتنا الحضارية وحضارات الهند والشرق الأقصى، فإنها جديدة في دائرة الحضارة الغربية التي سيطرت عليها في القرون الثلاثة الماضية علمانية دهرية تُنكر الدين أو تضعه جانباً. وقد تابعتُ هذا الجديد الذي يشهده الغرب على مدى العقدين الماضيين من السنين، وأفردت للحديث عنه جزءاً من كتابي الأخير «تجديد الفكر استجابة لتحديات العصر».

لفت نظري في هذه المتابعة أن قطاعاً من المتدينين الغربيين يطمح إلى أن يقوم «الدين» بدور في تسيير أمور عالمنا. ويتحمس هذا القطاع لفكرة تلاقي المؤمنين بالدين من مختلف أنحاء عالمنا ليعملوا معاً ويتعاونوا لبلوغ هذا الهدف. وقد استطاع هؤلاء أن يجذبوا «اليونسكو» لتشارك في الدعوة إلى «إسهام الأديان في ثقافة سلام». كما نجحوا في دفع «الهيئة الأوروبية» لتجعل الدين ضمن اهتماماتها وتضع موضوعه على جدول أعمال «الاتحاد الأوروبي».

هناك في الولايات المتحدة الأمريكية أيضاً دعوة ينهض بها بعض المؤمنين لإدخال الدين في النظام العالمي. وقد دعت منظمة «التربية الكوكبية» ومقرها نيويورك مؤخراً لمؤتمر بعنوان «الدين والنظام العالمي»، عقد في ربيع عام 1997، ورغبت إلي أن أعرض رؤية إسلامية لهذا الموضوع. فكان أن استجبت. وبدأ لي أن استهل حديثي بتحديد المفاهيم.

تعيش الإنسانية في نهاية الألف الميلادية الثانية عَصراً حافلاً بإنجازات ووعود من جهة، وبأنواع من المعاناة والأخطار التي تتهددها من جهة أخرى. ويقف إنسان العصر وهو يستقبل الألف الميلادية الثالثة متأملاً في نفسه وفيما حوله، يمعن النظر ويعمل الفكر في كيفية رفع المعاناة عن كاهله، ودفع الأخطار التي تتهدده وأمه الأرض والمخلوقات الحية الأخرى من جهة، وفي كيفية تحقيق مزيد من الإنجاز والوفاء بالوعد لما فيه خير الإنسانية. ويصل به هذا التأمل إلى ضرورة العناية بالنظام العالمي الذي ينظم أمور كوكبنا الأرضي والاجتماع الإنساني فيه، كما يصل به إلى استشعار حاجته الماسة إلى الدين للتواصل مع خالقه وخالق كل شيء طلباً للهداية والعون. وهكذا يبرز موضوع «الدين والنظام العالمي»، داعياً المؤمنين بالله سبحانه إلى أن يقاربوه من منظور ما يدينون به، وي طرحوا رؤية دينهم له.

يُعالج هذا البحث موضوع «الدين والنظام العالمي» من منظور إسلامي محاولاً الإجابة عن الأسئلة المطروحة في إطاره، وبلورة رؤية إسلامية له. ويمهد لذلك بالوقوف أمام مصطلح «النظام العالمي» بغية تحديد مفهومه المعتمد في هذا البحث. كما يقف أمام مصطلحي «الدين» و«الإسلام» ليقدم «المفهوم الإسلامي» لكل منهما. ويتناول الموضوع في ضوء أسئلة تتردد في أوساط المعنيين.

«النظام العالمي» مصطلح حديث، اقترن ظهوره بثورة العلم والتقنية التي شهدتها عالمنا حوالي منتصف القرن العشرين والتي أحدثت ثورة في الاتصال بين أنحاء العالم المختلفة. وقد استخدمت في هذا المصطلح كلمة «النظام» التي يجري استعمالها في أكثر من علم. وهي تعني اصطلاحاً بصورة عامة «مجموعة القواعد والاتجاهات العامة التي يشترك في اتباعها أفراد أو دول، ويتخذونها أساساً لتنظيم حياتهم الجماعية وتنسيق العلاقات التي تربط بعضهم ببعض وتربطهم بغيرهم، ويقوم عليها بناء سياسي أو اجتماعي أو اقتصادي أو ثقافي، وما يجري في هذا البناء من تفاعلات، والعلاقات المحددة لطريقة أداء العملية

السياسية. كما استخدمت في هذا المصطلح كلمة «العالمي» لتنسب النظام إلى العالم كله ليكون شاملاً الكرة الأرضية «Globe».

واضح أن استشعار الحاجة إلى وجود «نظام عالمي» في عصر «ثورة الاتصال» وثيق الصلة بحدوث تحولات على صعد عدة تؤثر على حياة الإنسان في كوكب الأرض أينما كان. وقد ظهر مصطلح «الكوكبة» Globalisation بقصد «إبراز التداخل الواضح لأُمور الاقتصاد والثقافة والاجتماع والسلوك دون اعتداد يذكر بالحدود السياسية للدول أو انتماء لوطن محدد أو ولاء لدولة بعينها دون غيرها من الدول». وكثيرة هي مظاهر «الكوكبة» في عالمنا في الاقتصاد والثقافة والفنون والإعلام. ويسهم في صنع هذه التحولات ظهور فعاليات جديدة هي الشركات متعددة الجنسيات «TNC'S» التي تتسم بالضخامة وتنوع الأنشطة، والانتشار الجغرافي، والاعتماد على المدخرات العالمية، وتعبئة الكفاءات من مختلف الجنسيات. وتبرز بفعل هذه التحولات قضايا لها صفة «العالمية» مثل قضية الممتلكات العامة البشرية من بحار وفضاء وقارة قطبية جنوبية، وقضية صيانة البيئة وتحركات سكان الأرض، وقضية الفقر في العالم، وقضية الجريمة المنظمة. كما تثور تساؤلات لها صفة «العالمية» أيضاً حول دور الدولة في ظل التحولات هذه، وعن دور الجماعات الأهلية في أوطانها، وعن المنظمات الأهلية متعددة الجنسيات التي قامت مؤخراً في إطار الكوكبة في الغرب بخاصة، فضلاً عن دور منظمة الأمم المتحدة والمنظمات المتخصصة المنبثقة عنها. وقد أحسن إسماعيل صبري عبد الله شرح هذه التحولات في بحثه «الكوكبة» الذي رجعنا إليه في هذا البحث.

إن تشييد بناء نظام عالمي يُحسن معالجة هذه القضايا والإجابة عن هذه التساؤلات هو مسؤولية إنسانية جمعاء، يجب أن ينهض بها البشر أجمعون. وهو لا يزال هدفاً تضع البشرية نصب عينها تحقيقه. وقد عني عدد من المفكرين بالحديث عنه منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية، واحتدم نقاش حوله في مطلع التسعينات حين تحدث الرئيس الأمريكي جورج بوش عن إقامة «نظام عالمي جديد». وأكد هذا النقاش الذي عرضناه في كتابنا «عمران لا طغيان» على المسؤولية الجماعية لأُمم العالم في بناء النظام العالمي الذي لا يمكن لأي دولة مهما كانت كبيرة أن تنفرد بإقامته، لأنه يجب أن يستلهم قيم الحضارات الإنسانية العُلا جميعها ويعبر عن إرادة المجموع.

ومما يلفت النظر ويبشر بالخير طرح مبادرات تسير في هذا الاتجاه لبلورة رؤية عالمية مشتركة لهذا النظام العالمي ، ومنها مشروع «الدين والنظام العالمي» الذي تنهض به مؤسسة التعليم الكوكبي «GEA». وقد أحسنت «باتريشيا ميتشي» صياغة الأسئلة المتصلة بهذا المشروع حين قالت «السؤال الذي نحن بصددّه ليس ما إذا كان سيقوم نظام عالمي جديد، ولكنه أي نوع من النظام العالمي؟ وعلى أي أساس من القيم؟ وبأي رؤية وروح؟ وماهي السياسات والمبادئ التي توجهه؟ وبأية أبنية مؤسسية وأنظمة يقوم؟ ومن يصوغ هذا النظام العالمي الجديد؟ ولمنفعة من؟ وهل ستتحكم فيه قوى الاقتصاد والعسكرية؟ أم يكون نظاماً أصيلاً قائماً على المشاركة يحكمه قانون دولي فعال أساسه المساواة والنمو الاقتصادي والبيئي؟ هل سنمسك باللمحة التاريخية في فجر قرن جديد لنطور نظاماً عالمياً يفيدنا جميعاً، وليس بعضاً منا فقط، ويفيد أيضاً من يأتي بعدنا؟».

حين نبحث في المنظور الإسلامي لموضوع «الدين والنظام العالمي» نستشعر الحاجة لشرح «المفهوم الإسلامي». لكل من مصطلحي «الدين» و«الإسلام».

«الدين» في اللسان العربي يدل على معاني الحساب والطاعة والعادة والشأن والحال والسيره والحكم والقضاء. وهو اصطلاحاً يطلق على الشرع، وهو «وضع إلهي سائق لذوي العقول باختيارهم إيّاه إلى الصلاح في الحال والفلاح في المال. وهذا يشتمل العقائد والأعمال، ويطلق على كل ملة نبي، وقد يخص بالإسلام «أن الدين عند الله الإسلام». و«الدين» اصطلاحاً هو «الشرع المنزل من عند الله ليكون منهجاً للحياة». وهو بمعناه العام في مفهوم التصوف الإسلامي «ناموس أبدي مطلق، وبذوره كامنة في كل نفس حية، وهو يشمل في محيطه الواسع بذور كل ديانة وملة قديمة أو حديثة، وأساسه العام وحدة الخالق وخلود النفس وشيوع الحب، وضبط معاملة الإنسان لأخيه على قاعدتي العدل والإحسان، ثم اعتقاد وجود الثواب والعقاب في عالم غير هذا العالم. ويلاحظ «محمود أبو الفيض المتوفى» الذي شرح هذا المفهوم في كتابه «الدين المقارن» أن «لكل دين ظهر في الجماعة الإنسانية مهما كان نوع تعاليمه، وجهان من التعليم: وجه سري باطني، وآخر ظاهري فقهي عملي»، وأن «أول عبادة ظهرت من ضمير الإنسان كانت عبادة الله علي أبسط أشكال العبادة، ثم جاءت الطقوس». كما يلاحظ «أن جميع الديانات خرجت رجالاً فضلاء أدهشوا العالم بسمو أفكارهم

وعظم أعمالهم ومثانة أخلاقهم وترفعهم عن صغائر عالمتنا الأرضي إلى سماء المعرفة الحقّة.

«الإسلام» في اللسان العربي هو «الخشوع والاستسلام لأمر الله، بطاعته والاستجابة لأوامره ونواهيه». وهو اصطلاحاً «دين الله في الأرض منذ خلق الله الإنسان حتى قيام الساعة». فجميع الأنبياء والمرسلين كانوا «مسلمين لله» وهو أيضاً ما نزل به الوحي السماوي على محمد خاتم الأنبياء والمرسلين في «القران الكريم». والإسلام يسلم بسائر الكتب المنزلة والرسل : ﴿أَمِنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَانْفِرَقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾. وهكذا فإن «الأديان» التي أوحى بها الله سبحانه، تمثل في المنظور الإسلامي حلقات مترابطة في سلسلة «الدين» الواحدة. وكأنها سيال واحد من النور لا لون له غير الحقيقة. ومؤسسوها من الرسل والأنبياء يمثلون عائلة واحدة ذات أفرع. والإسلام دين يقوم على التوحيد. وهو يوفر رؤية للكون والحياة والإنسان. ومن خصائصه إعلاء شأن العقل والحث على التفكير العقلي، والاعتقاد بالعلاقة المباشرة بين الإنسان وخالقه، والإيمان بأن التدين فطري في الإنسان، وشمول الأحكام الخاصة بالفرد والمجتمع، وتغيير فروع هذه الأحكام بتغير ظروف الأزمان، والحث على التجديد، واعتماد «الشورى» أساساً للبحث في الأمور العامة على مختلف الصعد.

لقد كان دين «الإسلام» عاملاً أساسياً في ازدهار حضارة إنسانية ظلّت دائرة واسعة من البلاد واستمرت قروناً. واشتهرت هذه الحضارة باسم «حضارة الإسلام». وكثيراً ما ينصرف مصطلح «الإسلام» إليها، فيجمع بين كونه ديناً وحضارة. وقد أسهم في تشييد حضارة الإسلام مؤمنون من المسلمين والنصارى واليهود ومن ملل أخرى، وأقوام كثيرون. وهؤلاء جميعاً يشعرون بانتمائهم إلى هذه الحضارة التي شهدت ممارسات عملية للمبادئ والقيم الدينية. وهي تسمى أيضاً الحضارة العربية الإسلامية لكون اللسان العربي جامعاً مشتركاً بين شعوبها في العلوم الدينية بحكم أن القرآن نزل بالعربية.

إننا حين نتحدث عن رؤية إسلامية للدين والنظام العالمي، فإن في اعتبارنا هذه المفاهيم لكل من الدين والإسلام والنظام العالمي.

2 - العمل في اتجاه أخلاق كوكبية مشتركة

إن واقع النظام العالمي يشير إلى أنه يعاني من أزمة قيم مستحكمة. وهو يؤكد أن الافتقار إلى قيم ومبادئ مشتركة يحكمها معيار واحد، يؤدي إلى تفاقم معاناة الإنسان المعاصر. وواضح أن بناء مستقبل زاهر للإنسانية يتطلب نهوضاً روحياً وأخلاقياً، ونظاماً عالمياً عادلاً له أبعاده السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية والتشريعية ويحكمه قانون أخلاقي.

حين ننظر فيما يمكن للإسلام- ديناً وحضارة- أن يسهم في «أخلاق كوكبية مشتركة»، نجد بدايةً أن كتابه المُنزَل «القرآن» حافل بالتعاليم الأخلاقية التي يمكن أن نستخلص منها دستوراً للأخلاق. وهذا ما قام به الشيخ محمد عبد الله دراز في أطروحته «الأخلاق في القرآن» التي نال عليها دكتوراه الدولة من السوربون. وقد ميّز الشيخ دراز في القانون الأخلاقي بين فرعي النظرية والتطبيق. وكشف في بحثه عن «الأخلاقية العملية» في القرآن عن ثلاث خصائص مجملها « أنها حفظت تراث الأسلاف ودعّمتها، وأنها وفقت بين الآراء المختلفة التي فرقت أخلاقهم، وأنها رفعت ذلك البناء المقدس وجملته حين ضمت إليه فصولاً كاملة الجدة رائعة التقدم ختمت العمل الأخلاقي». ويوضح الشيخ دراز أن النظرية الأخلاقية كما يمكن استخلاصها من القرآن مقارنة بالنظريات الأخرى قديمها وحديثها تستند على فكرة الإلزام L'obligation، وفكرة المسؤولية، وفكرة الجزاء، وفكرة النية والدوافع، وأخيراً فكرة الجهد. وقد شرح باستفاضة هذه الأفكار الخمسة، بما لا يتسع مجال هذه الورقة لعرضه. وانتهى إلى تفصيل الأخلاق العملية كما جاءت في القرآن بعد أن بوبها إلى الأخلاق الفردية، والأخلاق الأسرية، والأخلاق الاجتماعية، وأخلاق الدولة، والأخلاق الدينية، وختم بإجمال الفضائل الإسلامية.

واضح أن الحاجة ماسّة في عالمنا المعاصر لجميع هذه الأخلاق. وهناك موضوعات تلح علينا بشكل خاص تتطلع إلى إسهام الأديان في بلورة أخلاق كوكبية بشأنها.

فيما يخص موضوع السلام والأمن Peace and Security نجد أن الإسلام يجعل السلام هدفاً يستحق أن نعمل لبلوغه، ويعتمد مبدأ أن السلام هو الأصل والقاعدة في العلاقات بين الإنسان ونفسه، فيما يسميه سيد قطب «سلام النفس» في كتابه «السلام العالمي والإسلام»، وبين الإنسان وأسرته، ثم مجتمعه، وصولاً

إلى السلام العالمي. وينطلق هذا المبدأ من أن السلام هو أحد أسماء الله الحسنى فهو «السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر». ويوضح القرآن أن الله خلق الناس من ذكر وأنثى وجعلهم شعوباً وقبائل ليتعارفوا، ومن ثم ليتعاونوا على البر والتقوى في ظل السلام. وهو يدعو المؤمنين به إلى أن يقيموا علاقاتهم بالآخرين الذين لم يقاتلوهم ولم يخرجوهم من ديارهم على أساس من البر والقسط. ويأمرهم ألا يعتدوا ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾، وأن يجنحوا للسلام - في حالة نشوب الحرب- إذا جنح المعتدي للسلام وكفَّ عن عدوانه.

إن الإسلام في حثّه على السلام يعترف بوجود الصراع، ويتخذ موقفاً منه نابعاً من التصور الإسلامي للكون والحياة والإنسان. وهو ينطلق من هذا الاعتراف إلى توجيه الناس لكيفية إنهاء الصراع على مختلف الصعد، النفس والأسرة والمجتمع والاجتماع الإنساني العالمي. وقد فصلت الحديث عن موقف الاسلام من الصراع في كتابي «تجديد الفكر استجابة لتحديات العصر». وأوضحت أن السلم هو الأصل حين يقام الميزان بالقسط، وأن القتال هو الاستثناء حين يستلزم الأمر مواجهة الطغيان والبغي بغير حق بفعل طغي في الميزان وشن عدوان. والقتال هنا «جهاد» لرد الحقوق المغتصبة وقمع العدوان ونصرة المظلوم. وقد جاءت تعاليم الإسلام متضمنة توجيهات بشأن انتهاء الحرب ومعاملة الأسرى بتحريرهم، ومؤكدة على الوفاء بالعهد. كما عرضت في ذلك البحث لما كانت عليه ممارسة مبادئ الاسلام في تاريخ الحضارة الإسلامية. وهو تاريخ حفل بكثير من الأمثلة الإيجابية لهذه الممارسة ولم يخلُ من أمثلة سلبية لها.

الأمن- في المنظور الإسلامي- نعمة من نعم الله على عباده، فهو سبحانه الذي يطعمهم من جوع ويأمنهم من خوف. وهذا الأمن يتحقق في النفس الإنسانية بالإيمان بالله سبحانه، والصبر عند الابتلاء بالخوف والجوع ونقص في الأموال والثمرات، والسعي لاستتباب الأمن المجتمعي من خلال الالتزام بأن دم «الآخر» وماله وعرضه «حرام»، ومن ثم الوصول إلى الأمن الجماعي العالمي. وبلوغ السلام ضروري لاستتباب الأمن، تماماً كما أن استتباب الأمن يجعل السلام راسخاً.

فيما يخص موضوع العدل الاقتصادي والاجتماعي Economic and Social Justice نجد أن الاسلام يؤكد على مبدأ العدل ويدعو إلى اعتماده حتى مع من نكره ﴿وَلَا يَجْرُمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ

يَأُولِي الْأَلْبَابِ». وقد قرن الإسلام بين السلام والعدل، فهما في منظوره هدفان متلازمان. فأي نظام عام لا يقوم على العدل لا بد وأن تولد فيه التوترات والصراعات التي تهز أركان السلام وتفقد الإنسان الأمن. وقد أوضح مجيد خدوري في كتابه «المفهوم الاسلامي للعدل» أن هذا ما يجعل العدل هو المفتاح للسلام الدائم . وهو يلاحظ أن في القرآن الكريم حوالي مائة تعبير يفيد معنى العدالة باستخدام لفظ «العدل» مباشرة أو ألفاظ «القسط» و«الميزان» و«النصيب». ومنها قوله تعالى : ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ وقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى﴾ وقوله : ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ والإسلام ينهى بقوة عن الظلم. ويذكر خدوري « أن في القرآن أكثر من مائتي آية ضد الظلم بأشكاله تتحدث عنه وعن «الإثم» و«الظلال» وما شابههما.

اختلفت مقاييس العدل من مكان لآخر ومن زمان لآخر بحسب النظام العام والمجتمع والمرحلة التاريخية. ونظرية الإسلام في الحكم تجعل الوحي مصدر العدالة ومقياسها. فالله سبحانه أوضح للإنسان ما هو عادل وما هو جائر. والإنسان مدعو لأن يكون عادلاً على مختلف الصعد، في السر والعلن. وقد حفل تاريخ الحضارة الإسلامية بأمثلة رائعة على إمكانية تطبيق هذه النظرية وفي السيرة النبوية بخاصة. ويقول خدوري «إن الرسول محمداً الذي كان يتميز بحس عميق للعدالة وجد الظلم والطغيان سائدين في مجتمعه، فسعى إلى إقامة نظام يسوده العدل . وتعامل مع مشكلات عصره بالاستقامة والقسط والميزان وتصدى لأشكال التفرقة والأعمال غير الإنسانية السائدة . وحرص وهو يسلم بقيمة الشجاعة والفضائل الأخرى على أن يؤكد القيم الروحية ليمنع القسوة والشدة.

وقد أعطى الفكر الإسلامي مفهوم العدل حقه من البحث على مختلف الصعد السياسية والدينية والفلسفية والأخلاقية والشرعية والاجتماعية، ومن أمثلة ذلك ما كتبه ابن خلدون في مقدمته في أن الظلم مؤذٍ ببناء العمران، وحديث ابن أبي الربيع في كتابه «سلوك المالك في تدبير الممالك» عن العدالة كفضيلة تتكامل مع الحكمة والعفة والشجاعة. وهو يقسم العدل إلى ثلاثة أقسام أحدها ما يقوم به العباد من حق الله تعالى عليهم، والثاني ما يقومون به من حق بعضهم على بعض، والثالث ما يقومون به من حقوق أسلافهم. وقد أولى الفكر الإسلامي الحديث هذا الموضوع حقه.

إن مفهوم العدل في الإسلام ينطلق من رؤيته الكونية التي تؤكد أن التوازن يحكم الكون الذي خلقه الله سبحانه، فكل شيء «بحسبان»، ولا بد من «الميزان» واعتماد «القسط» في الوزن. (سورة الرحمن). وأبسط تحديد لهذا المفهوم هو «أن يحب المرء لأخيه ما يحبه لنفسه، وأن لا يرضى أن يصيب أخاه ما لا يرضاه لنفسه». وهكذا يبرز مقياس واحد للعدل يحفظ له روحه وجوهره، ويجنبنا ازدواج المقياس. كما أوضحت في كتابي «وحدة التنوع وحضارة عربية إسلامية في عالم مترابط».

فيما يخص موضوع حقوق الإنسان Human Rights نجد أن الإسلام يقرر بداية تكريم الله للإنسان «ولقد كرّمنا بني آدم»، ويرسي من ثم «مبدأ كرامة الإنسان». وهو يحث على حفظ حقوق الإنسان في أجياله كلها عبر رحلة العمر، طفلاً وحدثاً وبالغاً أشدّه وشيخاً، وذكرأ وأنثى. وكثيرة هي الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تبين هذه الحقوق. وقد عني الفقهاء بشرحها وتبويبها، فجمعت ذخيرة فقهية غنية. وكما عني الإسلام بحقوق الإنسان الفرد، نجده قد عني بالحقوق الاجتماعية، وأرسى مبدأ التكافل الاجتماعي، محققاً توازناً في علاقة الفرد بالمجتمع. وقد جعل الإسلام «الزكاة» ركناً من أركانه، وحدد أوجه صرفها تطبيقاً لهذا التكافل.

الناس سواسية كأسنان المشط، ومبدأ المساواة هذا يجعل نظرة الإسلام الى موضوع حقوق الانسان منصرفة إلى الإنسان أينما كان على اختلاف لونه ولسانه وهويته. فلا عنصرية ولا تمييز. وهذا المبدأ متصل بمبدأ وحدة أصل البشرية في الإسلام. فالله خلق الناس جميعاً من ذكر وأنثى. و«كلنا آدم، وآدم من تراب».

لقد عني الفكر الإسلامي الحديث بالإسهام في الفكر الإنساني حول حقوق الإنسان، فشارك في صياغة الإعلان العالمي لحقوق الإنسان والوثائق الدولية الخاصة بالحقوق الاقتصادية والاجتماعية. وقام بشرعها وتأسيسها في حضارة الإسلام. ودعا إلى الالتزام بها نصاً وروحاً. وأبرز وثائق تاريخية تعطي أمثلة رائعة على التطبيق العملي لهذه الحقوق. ومنها «حلف الفضول» في آخر القرن الميلادي السادس قبيل بعثة الرسول، و«صحيفة المدينة» بعد بعثته.

أثمرت هذه الدعوة إلى الالتزام بمواثيق حقوق الانسان نصاً وروحاً في العالم الاسلامي، حركة متنامية للدفاع عن حقوق الإنسان وممارستها عملياً

وحمايتها من الانتهاكات. وتنضوي تحت لواء هذه الحركة منظمات لحقوق الإنسان ومراكز بحث تستلهم الوحي الإلهي في ممارساتها ودراساتها. ومن هذه المنظمات المنظمة العربية لحقوق الإنسان التي نصت في نظامها الأساسي على احترامها للقيم الدينية. وقد تصدت هذه الحركة للتوعية بحق الحياة، وبحق الكرامة (حماية العرض والسمعة)، وبحق الحرية - الفكرية والسلوكية والتبليغية -، وبحق المساواة، وبحق التمتع بالأمن، وبحق الارتحال، والإقامة والسكن، وبحق العدالة في التعامل وفي القضاء، والحقوق الاقتصادية من عمل وملكية، والحقوق العائلية، وبحق التعليم والتربية، وبحق الرعاية الصحية والاجتماعية، وبحق «الأقليات» وبحق اللجوء، وبحق المواطنة، وبحق الضمان الاجتماعي، والحقوق الأخلاقية من حق الجوار إلى حق الزمالة والعمل إلى حق الصداقة إلى حق المعلم إلى حق الأخوة الدينية إلى حق الشريك، كما رأينا في بعض مؤتمراتها.

يولي الفكر الإسلامي المعاصر وحركة حقوق الإنسان في العالم الإسلامي عناية خاصة لحقوق المرأة والطفل والشيخوخة. وقد أثمرت هذه العناية نظرات يمكن أن تسهم في معالجة أوضاع شاذة تتصل بهذه الحقوق في أنحاء مختلفة من عالمنا. ومثل على ذلك «رسالة إلى نساء العالم» التي وجهها عدد من المفكرين بمناسبة انعقاد مؤتمر المرأة العالمي في بكين عام 1995 ومثل آخر يتصل بحق الطفل في أن ينشأ في أسرة ويعرف جذوره وانتماءه. ومثل ثالث يتصل برعاية الشيخوخة والحرص على الأسرة الممتدة.

3 - البيئة والهوية

من الموضوعات التي أصبحت محل اهتمام كبير في عالمنا المعاصر موضوع البيئة وموضوع الهوية. والأول متعلق بكوكب الأرض التي يعيش الإنسان والمخلوقات الحية الأخرى فيها. والآخر يتعلق بالإنسان الذي يعمر هذه الأرض، ويعتمد إلى التخریب فيها أحياناً. وقد عَظُم إلحاح الموضوعين في ظل ثورة العلم التقني التي كان لها مضاعفات على البيئة، وكثُفت الاتصال بين الناس فطرحَت قضية الهوية.

مصطلح «البيئة» حديث مثل هذه الثورة. و«البوء» في اللسان العربي هو المرجع والقرار واللزوم. وقد جاء في القرآن الكريم: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ﴾. و«التبوء» هنا هو «المسكن والألف والملتزم». وحين هاجر رسول الله (ص) إلى المدينة، ورد أنه قال «هنا المُتَبَوُّ» ويدل المصطلح على «المحيط الذي

يعيش فيه الإنسان وما في هذا المحيط». وهكذا فإن بيئة الإنسان كما يقول علي راضي أبو زريق في بحثه «الإنسان والبيئة» هي المكان الذي يوجد فيه الإنسان وما في ذلك المكان من عوامل وعناصر تؤثر في تكوينه وفي أسلوب حياته». والبحث في موضوع «البيئة» يشمل عنصر «المكان» الذي هو أول عناصر البيئة. كما يشمل «الزمان» الذي هو حركة المكان، والماء والهواء، والمعادن ومصادر الطاقة، والنبات والحيوان، والإنسان.

فيما يخص موضوع الحفاظ علي البيئة Ecological Sustainability، نجد أن الإسلام ديناً وحضارة قادر على الإسهام في دفع أخطار تهدد كوكبنا الأرضي، بالرؤية الكونية التي يقدمها لهذا الكون والحياة والإنسان. فإله أحسن كل شيء خلقه، وخلق الإنسان في أحسن تقويم، وجعله خليفة في الأرض بعد أن أنشأه منها، واستعمره فيها. وخلق كل شيء بقدر. ونظم دورة الحياة بحسبان وتناغم. ودعا الإنسان إلى تعمير الأرض التي جعلها ذلولاً، وإلى العناية بنفسه وبما حوله في بيئته استجابة لأمر الله الذي سخر له ما في هذا الكون.

إن الواقع الحضاري في عالمنا يكشف عن هذه الأخطار التي تهدد أُمّنا الأرض بفعل طغيان بعض بني البشر على البيئة وامتھانهم لها والتعدي عليها بحجة قهر الطبيعة. ويبدو لكثيرين في ضوء هذه الأخطار أن مستقبل الحضارة في عصرنا هو محل تساؤل. وقد وقف ارنولد توينبي طويلاً أمام هذه اللحظة التاريخية وهو يكتب في شيخوخته كتابه «الإنسان وأمه الأرض»، فرأى البشرية تأخذ بخناقها أزمة خانقة، والمستقبل مزعج بسبب ما يهدد المجال الحيوي، وقرر أن التغيير الوحيد الذي يمكن أن ينفذ هذا المجال هو زيادة القدرة الروحية للإنسان التي بها يغلب الخير على الشر. والرؤية المؤمّنة لهذا الواقع الحضاري ولهذه اللحظة التاريخية فيه تكشف - كما أوضحت في كتابي «عُمران لا طغيان» - عن وجود إمكانية كبيرة لاختيار الخير وانتصاره على الشر. وذلك باعتماد الرؤية المؤمّنة التي تقدم نظرة كونية ينطلق منها الإنسان إلى تبني مفهوم للحضارة يؤكد على «التعمير» ويقاوم التخريب الذي يتم أحياناً باسم الحضارة ويعمد إلى «تغيير خلق الله». وقد رأى محمد إقبال في كتابه «تجديد الفكر الديني في الإسلام» أن العالم كما صورّه القرآن لم يخلق عبثاً، وهو مرتب على نحو يجعله قابلاً للزيادة والامتداد، «يزيد في الخلق ما يشاء». والإنسان في صميم كيانه قوة مبدعة وروح متصاعدة، تسمو قدماً من حالة وجودية إلى حالة أخرى. ولقد قدر عليه أن يشارك في أعمق رغبات العالم الذي يحيط به، وأن يكيّف نفسه ومصير العالم كذلك، تارة

بتهيئة نفسه لقوى الكون، وتارة أخرى ببذل ما في وسعه لتسخير هذه القوى لأغراضه ومراميه. وفي هذا المنهج من التغيير التقدمي يكون الله في عون المرء شريطة أن يبدأ هو بتغيير نفسه، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾.

تبلور هذه الرؤية المؤمنة مفهوم العمران الحضاري الذي ينطلق من تحديد دقيق لمكان الإنسان في الطبيعة، وينظر إلى العالم باعتباره يمثل في تنوعه وحدة، تماماً كما يعتمد ترابط أبعاد الحياة الإنسانية، فمشكلة التنمية مثلاً ليست مجرد موضوع اقتصادي وإنما هي موضوع إنساني، ولا بد أن نوضح كما يقول «ألبيرتو دي راينا» في مجلة «ديوجين» ما هو أساسي وجوهري بالنسبة للإنسان مثل الحب والعدل والحرية والكرامة والشعر والجمال والقيم الروحية، لأن النموذج الاقتصادي الذي يغفل ذلك يهبط بالفن إلى منزلة البضاعة، ويهوي العلم إلى أن يصبح أداة، وينحط بالأفكار لتصبح محسوبة بمصطلحات الربح والخسارة.

الأمثلة كثيرة على ما يمكن للإسلام أن يسهم فيه للحفاظ على كوكبنا الأرضي وحياة المخلوقات فيه، ومنها هذا الإنسان الذي كرمه الله. وذلك من خلال أنماط الحياة الإسلامية. ونكتفي هنا بذكر مثل واحد هو «إعلان عمان» الذي صدر عام 1989 حول أنماط الحياة الصحية في الإسلام. وقد وضعه عدد من العلماء المسلمين بدعوة من المكتب الإقليمي لشرق المتوسط في منظمة الصحة العالمية مع ثلاث مؤسسات إسلامية، وكان كاتب هذا البحث واحداً منهم. وجرى تعميم هذا الإعلان، مشروحاً بآيات القرآن الكريم وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم.

لقد بلور الفكر الإسلامي مجموعة أفكار تتعلق بالبيئة من خلال ما جاء به الوحي الألهي في القرآن الكريم، وأهم هذه الأفكار، كما أوضح «أبوزريق» في بحثه الذي أشرنا إليه، «أن البيئة الأرضية جزء من الكون كله. وهي بيئة متوازنة، خلق كل شيء فيها بحساب. وعلى الإنسان أن يحافظ على هذا التوازن، ولا يتسبب بتلويث البيئة. وأن كل ما في البيئة مخلوق من أجل الإنسان مسخر له. فالعلاقة بين الإنسان والطبيعة يحكمها التسخير وليس الصراع. وأن الأرض فيها من الرزق ما يكفي الناس وهي تتسع لهم في السكنى إذا أحسنوا إدارة أمورها. وأنه ليس من الحكمة أن يهدر الإنسان ما خلق الله له من طاقات ومصادر طبيعية أو يستنزفها.

فالإسراف والتبذير حرام. وأن هناك ترابطاً بين الإنسان والحيوان والنبات وتفاعلاً وتكاملاً، فيجب الحفاظ على كل نوع نباتي أو حيواني في البيئة، حتى لو لم تكن الفائدة من وجوده معروفة الآن، لأن الله لم يخلق من شيء عبثاً.

تبقى فكرة أساسية هي أن الإنسان جزء من بيئة الإنسان. ويستطيع أن يكون سبباً في سعادة محيطه الإنساني، إذا هو التزم بعمل الصالحات ونهى النفس عن الهوى وتجنب الطغيان. كما يستطيع أن يكون سبباً في شقاء إخوته من بني الإنسان إذا طغى. وهو في الحالة الأولى سيحظى بنعيم الدارين الدنيا والآخرة. بينما يعاني في الحالة الأخرى من الشقاء فيهما.

فيما يختص الهوية الثقافية والتكامل Cultural Identity and Integrity، نجد أن الإسلام مع إقراره مبدأ وحدة أصل البشر جميعاً، فإنه يُقرُّ في الوقت نفسه تنوعهم. وقد شاء الله خالقهم أن يجعلهم مختلفين في «ألوانهم وألسنتهم»، وأن يجعل المناخ في كوكبهم الأرضي مختلفاً بين منطقة وأخرى، وكذلك التضاريس، وأن ينتشر هؤلاء في أرجاء المعمورة. كما شاء سبحانه أن تعدد عقائدهم. وهكذا تبلورت ثلاثة عناصر في صنع هوية الفرد الإنساني، الأول هو عنصر اللسان واللغة التي يتحدث بها هذا الفرد. والثاني هو عقيدته. والثالث هو تراثه الثقافي في مجتمعه من تاريخ وأدب وفن وعلم.

وتتعدد في هذه الهوية الواحدة دوائر انتماء هذا الفرد الإنساني. فهو ينتمي إلى «قومٍ» لهم لغتهم الخاصة بهم، كما ينتمي إلى دولة يحمل «جنسيتها» مع مواطنين آخرين، وينتمي إلى «ملة» يؤمن أفرادها بعقيدة، ثم ينتمي إلى «حضارة» تجمع قومه مع أقوام آخرين وملته مع ملل أخرى شاركوا في تشييدها.

إن هذا التنوع في الهوية الثقافية يغني الحياة الإنسانية، واحترامه أمر واجب «فلا إكراه في الدين»، وجميع الأجناس متساوية، وكل تراث مجتمعي يسهم في التراث الإنساني. والإسلام يعترف بهذا التنوع وينظر إليه باعتباره من حكمة الله ومن آياته. فهو سبحانه خلق الناس مختلفين، من أب واحد وأم واحدة، ومايز بين ألوانهم وألسنتهم ومجتمعاتهم وأقوامهم ومللهم. ودعاهم في الوقت نفسه إلى أن يتعارفوا ويتعاونوا على ما فيه خير الإنسان، ليلتفوا جميعاً في دائرة «العالمين» إخوة متساوين متعارفين متعاونين. والدخول إلى هذه الدائرة إنما يأتي من خلال احترام كل الهويات الثقافية. فالعالمية لا تعني محو هذه الهويات واستبدالها بهوية مفروضة بالقوة، وإنما تعني تفاعل هذه الهويات مع

بعضها وتعاون حاملها الذين يجمعهم أنهم جميعاً مخلوقين من الأرض وإليها يعودون ومنها يخرجهم خالقهم مرة أخرى. وقد أبرز الإسلام هذه الدائرة العالمية من خلال تمجيده لله «رب العالمين».

لا شك في أن ثورة الاتصال في عالمنا المعاصر جعلت «لدائرة العالمين» هذه معنى أكثر وضوحاً وعمقاً. وقد برزت في هذا المعنى حقيقة الاعتماد المتبادل بين مختلف الشعوب والأمم والحضارات وحقيقة خصوصية كل منهم. وهكذا تأكدت ضرورة تحقيق تكامل صحيح بينهم يقوم على احترام الهوية، ويتم بالرضا والتوافق. ومن هنا تبرز أهمية الوصول إلى نظام عالمي يمكن من تحقيق هذا التكامل من خلال التعاون بين أندية. واننا واجدون في الإسلام ورؤيته الكونية ما يحث على ذلك، ويدعو جميع بني البشر إلى «استباق الخيرات»، والتسابق على فعل الخير والعمل الصالح. كما يدعو «المؤمنين» إلى التكاتف لمواجهة الطغيان والبغي بغير حق، لرفع الظلم وإقامة العدل.

4 - تطلع الى قيادة كوكبية

الوعود والمخاطر التي تقترب بثورة العلم التقني، وتواجه إنسان العصر، تجعل الحاجة ملحة لوجود قيادة كوكبية راشدة حكيمة تعمل لتحقيق الوعود ولدفع المخاطر. والشعور بهذه الحاجة يعم دائرة واسعة من القيادات الروحية والفكرية في عالمنا. وإلى جوار هذه الظاهرة نجد ظاهرة أخرى ناجمة عن ثورة العلم التقني أيضاً، هي تطلع قوى الهيمنة في عالمنا لفرض سيطرتهم وبسط نفوذهم على جميع أنحاء الكوكب. وهم يسعون بغية تحقيق ذلك إلى إقامة نظام عالمي يمكنهم من هذه السيطرة والتحكم بالاقتصاد والسلاح، وإدارة الصراعات وليس العمل على حلها بأسلوب «الإدارة بالكوارث» والصورة العالمية اليوم تكشف عن أن كثيراً من الحكومات تعاني من ضغط «جماعات المصالح» التي تخدم قوى الهيمنة هذه. بل وصل الأمر أحياناً إلى تحكّم «المافيات» في بعض هذه الحكومات وأصبح خطر «الجريمة المنظمة» موضوعاً للمناقشة في المحافل الدولية بعد أن تفاقم.

إن القيادات الروحية والفكرية في مختلف الأقطار، تجد نفسها في عصر الكوكبية مدعوة إلى أن تتلاقى وتتعارف وتتعاون لما فيه خير الإنسان تحقيقاً للوعد ودفعاً للمخاطر. والواقع القائم اليوم في كوكبنا يشير إلى وجود أشكال من الصراع، وينذر بتفجر أشكال أخرى. وواضح أن إيجاد حلول لهذه الصراعات

يتجاوز حدود قدرة الحكومات والمنظمات الدولية التي تجمع الحكومات. ولذا فإن من المتوقع أن يقوى اقتناع الحكومات الرشيدة بضرورة دعم الدور الذي تقوم به القيادات الروحية والفكرية والمجتمع المدني بعامة.

إن السبيل مُمهّد اليوم في عصر الكوكبة لنمو شكل آخر من أشكال التعاون في عالمنا على صعيد شعبي بين المنظمات غير الحكومية فيما يعرف بالمجتمع المدني. وسيغني هذا النمو ما تم من تعاون على صعيد رسمي بين حكومات الدول في إطار منظمة الأمم المتحدة التي جاءت ولادتها مع تفجر ثورة العلم التقني وثورة التحرير في عالمنا في نهاية الحرب العالمية الثانية. وإذا كانت الأمم المتحدة قد شغلت بإيجاد حلول للصراعات التي تنشب بين الدول، وحققت في ذلك نجاحاً محدوداً جداً، فإنها لا تستطيع بحكم تكوينها العمل على حماية عامة الناس داخل أقطارهم من تحكّم قوى الهيمنة، ومعالجة الصراع الناشب بفعل هذا التحكم.

ومن هنا تبرز أهمية وقوف «المجتمع المدني» والقيادات الروحية والفكرية صفّاً واحداً في الدعوة الى السلام والعدل ومواجهة الطغيان والبغي بغير حق، في وقت يبدو فيه أن الصراع سيحتدم ضد هذه القوى داخل كل قطر وعلى مدى الدائرة الكوكبية عبر الحدود السياسية للدول وعبر القارات. وسيكون الدين والقيم الروحية خير معين في حل هذا الصراع والرؤية الكونية الإسلامية تجب على تعاون المؤمنين بالله وبالقيم والمثل العليا أينما كانوا بغض النظر عن جنسياتهم وهوياتهم الثقافية.

المعيار الذي يجب اعتماده للتعاون على صعيد «المجتمع المدني الكوكبي» هو «البرّ والتقوى». والبرّ يعني جماع العمل الصالح، والتقوى تعني أن نستحضر الله سبحانه في كل ما نعمله. فالصلة وثيقة بين النية والعمل. وهذا ما يميز ما يتم من أعمال على هذا الصعيد بأنها قائمة على نية صالحة، واضعة نصب عينها رضى الله سبحانه الذي يعلم ما في «السرائر». فمفهوم «المصلحة» هنا له بعده الروحي الذي يميزه عن مفهوم المصلحة الذي يفتقر الى هذا البعد. وهكذا يتضمن هذا المعيار مبدأ الأخوة الإنسانية المترتبة على الأصل الواحد، فلا عنصرية «والخلق كلهم عيال الله». كما يتضمن مبادئ المساواة والعدل والسلام والتكافل.

إن لنا أن نتطلع إلى تكثيف الجهد للتعرف على كل القيادات الفكرية والروحية والمنظمات التي تعمل على هذا الصعيد، وتقوية شبكة الاتصال فيما

بينها وصولاً إلى قيام إطار واحد جامع لها. ولا بد أن ينسجم هذا الإطار مع طبيعة العمل الذي يتم فيه الحرص على التمسك بالدين والقيم الروحية، وأن يستفيد من تجارب أطر المنظمات الدولية، مع تجاوز ما برز في هذه التجارب من سلبيات.

سيكون نجاح العمل على هذا الصعيد العالمي، حين يتحقق النجاح في الأقطار على الصعيد الوطني. فمعيار نجاح أية منظمة قطرية يتضمن أولاً قدرتها على الإضاءة في مجتمعتها، وخدمة أفرادها، ثم يتضمن ثانياً وقوفها مع الحق في العالم متكافة مع نظيراتها.

واضح أن العمل على هذا الصعيد الديني الأخلاقي، قطرياً وإقليمياً وعالمياً، يتعرض لمحاولات التأثير عليه من قبل قوى الهيمنة والحكومات على السواء، لاستتمالاته وصرفه عن الجهر بالحق، بأساليب الترغيب والترهيب. ولا ينجيه من ذلك إلا التصاقه بقاعدة مجتمعه، معتمداً عليها في تمويل نشاطاته، مستلهماً إراداتها فيما ينبغي عليه القيام به. والحق أن واقع الحال في المجتمعات المدنية في عالمنا حافل بالأمثلة على محاولات «الاستمالة» لها والتأثير عليها، وبخاصة عن طريق «التمويل». ومن المؤسف أن بعض هذه المحاولات كانت تنجح، الأمر الذي ترتب عليه فقدان صدق من تمت استتمالاته. ذلك أن عامة الناس في قاعدة المجتمع لديهم إحساس قوي صائب في التمييز بين من يعمل لصالحهم ومن يعمل لصالح قوى الهيمنة. ويشيع في بعض الأقطار مصطلح «علماء السلطة» للدلالة على من استتمالتهم الحكومات من العلماء، تمييزاً لهم عن «العلماء الحقيقيين». والأمر نفسه يصدق على من تستميلهم «قوى الهيمنة» أو «قوى التطرف» على السواء.

إن قيام القيادات الروحية والفكرية ومنظمات المجتمع المدني بدورها الاجتماعي على الصعيدين القطري والعالمي يسهم بتحقيق التوازن في المجتمعات وفي عالمنا، وذلك بتصدية لمعالجة موضوعات حيوية لا يكفي القانون في معالجتها. فالدين مثلاً يوجهنا إلى احترام حقوق «الجار» وحقوق «اليتيم»، والافتقار في سبيل الله، وينهانا عن سوء الظن والغيبة والتجسس والتطفيف في الكيل والميزان والنهي عن الشهادة بالزور أو كتمان الشهادة وعن مفسد الأقوال ومساوئ الأعمال، إلى غير ذلك من الأخلاق الفردية تجاه «الآخر».

حين نركز نظرنا على بعض مسببات التوتر في المجتمع نجد أن الإسلام،

ديناً وحضارة، عني بإرساء مبادئ لمعالجتها والقضاء عليها. فهو يوائم بين «المصلحة الفردية والمصلحة العامة» ويقيم معادلة بينهما تحقق التوازن. فحق الملكية مقترن بفرضية الزكاة التي تلبي المصلحة العامة. وحرية التصرف الفردي مشروطة بعدم الإخلال بمصلحة المجموع، وعلى «المجموع» أن يحولوا دون قيام عمل فردي بإغراق السفينة التي تضمهم جميعاً. وهذا ما يوضحه حديث شريف ضربه نبي الإسلام محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم مثلاً. والفكر الإسلامي غني في تناوله موضوع «الحقوق والمسؤوليات» و«الحق والواجب». فالمسلم مدعو إلى الإيمان بالله وعمل الصالحات بداية، نهوضاً «بالأمانة» و«المسؤولية» ووفاءً بالواجب. وهو راع ومسؤول عن رعيته في بيته وفي مكان عمله - ذكراً كان أو أنثى - وفي مجتمعه في حدود المهمة التي يقوم بها. وعليه أن يحمي «الثغرة» التي يقف عليها في سوء البناء الاجتماعي، كما تعلم الآيات والأحاديث النبوية. وهو في الوقت نفسه له حقوق يجب احترامها في بيته وفي الطريق وفي الشارع. والإسلام الذي يحترم الملكية الفردية يقرر أن الناس جميعاً شركاء في ثلاث «الهواء والماء والكلأ» مرسياً مبدأ وجود قطاع عام يقوم أفراد المجتمع برسم حدوده من خلال التشاور فيما يؤمن مصلحتهم العامة. وقد أولى الفكر الإسلامي هذه الموضوعات وغيرها، في القديم والحديث، عنايته. فلديه الكثير مما يمكن أن يسهم به على الصعيد العالمي فيها.

نستطيع في ضوء ماسبق أن نجمل تصورنا للإطار الجامع للقيادات الروحية والفكرية ومنظمات المجتمع المدني في عالمنا. فهو إطار عالمي، شعبي غير رسمي، يضم شخصيات ومؤسسات، مستقل عن الحكومات متعاون معها فيما يتفق مع الدين وقيمه، وناصباً لها بالرجوع إلى الحق حين تجانب أعمالها الصواب. وينطلق هذا الإطار العالمي في عمله من الإيمان بالله والالتزام بالقيم والمبادئ الدينية. ويركز في نشاطاته على الموضوعات الإنسانية المتصلة بالعلاقة مع البيئة ومع الآخر ومع الذات لتواجه أخطار الطغيان القائم حالياً في عصرنا على الصعد الثلاث وقد فصلت في كتابي «عمران لا طغيان» الحديث عن هذه الأخطار ومواجهتها.

يلتقي هذا «المجتمع المدني الكوكبي» مع منظمة الأمم المتحدة ووكالاتها المتخصصة في صفة العالمية وفي بعض مجالات العمل. وطبيعي من ثم أن يحدث تعاون بينهم يحقق التكامل. ويجب أن يأخذ هذا التعاون بعين الاعتبار تعزيز إيجابيات عمل الأمم المتحدة ومعالجة سلبياته. ونستطيع أن نميز هنا بين

مجالين من عمل المنظمة الأممية أولهما ما يتم في وكالاتها المتخصصة ولجانها من تفاعل وتشاور وتعاون، وهو في محصلته إيجابي. وثانيهما ما يتم في مجلس الأمن الذي تتحكم في قراراته دول كبرى لها حق النقض، وقد خضع منذ نشأة المنظمة الأممية عام 1945 حتى انهيار الاتحاد السوفييتي عام 1991 لأهواء الحرب الباردة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي، ثم أصبحت الكلمة العليا فيه للقبط الأمريكي وحده. وغلب على عمل مجلس الأمن مؤخراً اعتماد المعيارين في التعامل واستخدام الأمم المتحدة مظلة لتنفيذ سياسة القبط الواحد المتحكم. الأمر الذي أدى إلى إضعاف ثقة الكثيرين بالأمم المتحدة وسبب كوارث إنسانية كتلك التي نجمت عن فرض الحصار على ملايين البشر بزعم معاقبة حكوماتهم. وتتداعى إلى خاطر هنا أيضاً المرات التي استخدم فيها هذا القبط حق النقض لمنع إدانة «الاحتلال وممارساته المخالفة للدين وللقيم السماوية».

إن الآفاق رحبة أمام جميع المؤمنين في عالمنا لمتابعة العمل من أجل «تعمير» كوكبنا وحماية الحياة فيه، فليعملوا معاً ونصب أعينهم ما جاء في القرآن الكريم معززاً ما جاء في صحف إبراهيم وموسى ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى وَأَنْ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءُ الْأَوْفَى. وَأَنْ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى﴾ (النجم، 39-42) صدق الله العظيم .